مظاهر التناص في رواية "أبناء الديمقراطية" لياسر شعبان

عيسى مباركية
جامعة محمد البشير الإبراهيمي
برج بوعريريج - (الجزائر)
issambarkia@yahoo.fr

الملخّص:

يعد التناص تقنية من التقنيات الفنية التي استخدمها الشعراء والروائيون المحدثون والمعاصرون على نطاق واسع، واحتفوا بها بوصفها ضربا من تقاطع النصوص الذي يمنح النص ثراءً وغنى، مما يسهم في إعلاء بنيانه الجمالي في المقام الأول، ومن جملة الروائيين الذين وظفوا هذه التقنية كثيرا في متونهم الروائية "ياسر شعبان"، خصوصا في روايته "أبناء الديمقراطية"، إذ يتعدّد ويتنوّع التناص في هذه المدونة (التاريخي، الأدبي، الديني ...).

وتسعى هذه الدراسة للكشف عن مظاهر التناص المهيمن في هذا النص، وتبيان رؤية الكاتب من خلال هذا النسيج من العلاقات التناصية الواردة في هذا النص.

الكلمات المفتاحية: التناص(التاريخي، الأدبي، الديني)، رواية أبناء الديمقراطية

L'intertextualité dans le roman "les fils de la démocratie " De Yasser Shaaban

Résumé :

L'intertextualité est une technique utiliser par les romanciers est les poètes modernistes à grande échelle, elle a été célébrée comme une coupe transversale de textes qui lui donne toute sa richesse et sa splendeur, ce qui contribue à l'élévation de sa structure esthétique en premier lieu, et parmi les romanciers qui ont employé cette technique beaucoup dans leur forme narrative " Yasser Shaaban " et surtout dans sa version " les fils de la démocratie ", car il existe une multiplicité et une diversité dans ce code d'entrelacement (historique, littéraire et religieux).

L'étude que nous proposons cherche à détecter et à découvrir l'intertextualité qui se manifeste et domaine dans les textes de proses et vise aussi à montrer la vision de l'auteur à travers ce tissu et les relations de rivalité contenues dans ce texte.

Mots clés : L'intertextualité (historique, littéraire et religieux) Roman "les fils de la démocratie ".

Aspects of Intertextuality in the Novel of "Sons of Democracy" of Yasser Shaaban

Abstract:

Intertextuality is considered as an artistic technique that is widely used by recent and modern poets and novelists, it gives the text such abundance and enrichment and highlighters its beautiful structure as well, "Yasser shaaban" is one of such novelists who delt with intertextuality in their blogs, especially in his novel entitled: "Sons of Democracy" where (history, literature and religion …).

This study seeks to reveal the dominant manifestations of intertextuality in this narrative text, and to show the writer's vision through the existing intertextual relations in the text.

Key words: Intertextuality (historical, literary; religions), "Sons of Democracy" novel.

- مقدمة:

إن النص الروائي فضاء واسع ومجال رحب تلتقي فيه مجموعة من النصوص وكذلك الأجناس الأدبية الأخرى والمظاهر الثقافية غير الأدبية، فهو يستوعب كل ما يتصل بحياة الإنسان وبفكره من دين وفلسفة وتاريخ وأسطورة وسياسة... مما يجعله فسيفساء من تلك الحقول المتجاورة والمتداخلة والمنسجمة، وهذا ما سمي بالتناص.

وقد هيمن هذا الأخير وتعددت أشكاله في رواية "أبناء الديمقراطية" وذلك راجع لتنوع ثقافة الكاتب وشساعتها، واطلاعه على ثقافة الآخر، لذلك تنوع التناص وتعدد، وقد أخذنا من الرواية بعض التناصات الواضحة من بينها:

1 ــ التناص التاريخي :

استطاع الراوي أن يستحضر تاريخا حيا داخل شبكة من العلاقات الجديدة لذلك تعتبر المادة التاريخية من أهم الروافد السردية التراثية المتعانقة مع النص الروائي، فهي تحدث تفاعل نصي تاريخي تقدم الأحداث والوقائع

المترامية عبر الأزمنة القديمة والساحقة لإضفاء النص الروائي أكثر شرعية ومصداقية من حيث وجوده، كما أن تجسيد المادة التاريخية يساهم في استحضار الخطاب التاريخي لمواجهة الواقع المعاش وانتقاده.

ففي رواية "أبناء الديمقراطية" يعلن الكاتب في بدايتها بأنه: " متناص مع رواية أخرى في الجانب التاريخي الساخر"[1].

وأمثلة هذا النوع من التناص مبثوثة في مواضع قليلة من الرواية، وسنحاول تسليط الضوء عليها وكشف علاقتها بالرواية.

فقد ورد التناص التاريخي في الصفحات الأولى من الرواية، بل يمتد إلى آخرها، حيث يسرد المؤلف قصة غزو أمريكا للعراق، فيقول: " وحكايتي تبدأ ليلة إعلان الحرب على العراق "فعليا كان ذلك ليلة اصطدام الطائرتين ببرجي التجارة في أمريكا، ولكنني الآن أعتبر أن هذا الحادث كان تمهيدا ليس فقط لضرب أفغانستان بل لغزو العراق واستعماره."[2]

فالكاتب باستحضاره هذا النص إنما يريد أن يبين الوجه الحقيقي لأمريكا وأهدافها ونواياها من الحرب وكشف المخططات الاستعمارية، والألاعيب السياسية الممارسة على الشعوب العربية، فبعد أحداث 11 سبتمبر 2001، رأت الإدارة الأمريكية أن هناك علاقة بين "صدام حسين" و"أسامة بن لادن"، واستعملت هذا التبرير لتوجيه التهمة إلى "صدام حسين "بضلوعه في هذه الأحداث، وباعتباره مصدر تهديد لهم، وأنه خطر على الولايات المتحدة الأمريكية، وبعد النجاح الذي حققه الغزو الأمريكي لأفغانستان، والذي كان الهدف منه إسقاط نظام طالبان وزعيمه "الملا عمر" والقضاء على "بن لادن"، مما جعل الإدارة الأمريكية تتصور أن لها التبريرات العسكرية والإسناد العالمي الكافيتين لإزالة مصادر الخطر على أمن واستقرار العالم في منطقة الشرق الأوسط مما جعلها مصممة على الإطاحة بحكومة "صدام

حسين" خاصة في ضوء وجود سبب أساسي للحرب على العراق، وهو أنها تمتلك أسلحة دمار شامل. ويقول الراوي في حديثه عن هذه الحرب وأهميتها لدى الشارع الأمريكي والرأي العام العالمي باعتبارهما من المؤيدين لهذه الحرب وبشرعيتها، فيقول: "تعجلت الحكومة الأمريكية، بضغط من الهياج الجماهيري والبلاغة الخطابية المؤثرة وقامت بالدعوة إلى تحريك جيشها وقواتها الجوية والبحرية ووسائل الإعلام ودفعت بها إلى المعركة..."[3]

فالحكومة الأمريكية تطمح وتسعى إلى "الهيمنة على سوق النفط العالمية وضمان عدم حصول أزمة وقود في الولايات المتحدة بسيطرتها بصورة غير مباشرة على ثاني أكبر احتياطي للنفط في العالم"[4].

كما يستحضر الكاتب "حرب الفيتنام" في روايته؛ فيوقعنا في تناص تاريخي مع هذه الحرب، يحملنا به ثقل ذلك التاريخ ، وكل ما حمل من صراع ومشاحنات فيقول: " فعند اصطدام الطائرتين ببرجي التجارة ظن الناس ذلك انتصارا وعندما بدأت الحرب على العراق قالوا ستكون فيتنام أخرى"[5]، فالتناص هنا ظاهر من خلال الإشارة إلى حرب الفيتنام الشهيرة، ووظيفته الفنية بارزة من خلال الصورة المتخيلة لما سيحدث في هذه الحرب، باعتبار الناس يعلمون بنتائج حرب الفيتنام والخسائر المترتبة على هذه الحرب، وبالتالي فهذا التوظيف ينسجم مع النص الذي استعان بالتناص لفتح باب التخيل والتصوير والمشابهة، فمضمون التناص هنا يتضح في مشابهة تلك الحالات التاريخية للحالة الراهنة في النص ومن هنا يأتي هذا التناص منسجما مع الأحداث معززا لصورتها .

كما يستحضر الراوي تناصا تاريخيا آخرا يتمثل في نبأ استسلام ألمانيا في الحرب العالمية الثانية فيقول:" هبطت مدينة الإسكندرية ظهر اليوم الثامن من شهر مايو 1945، وكان نبأ استسلام ألمانيا في الحرب العالمية

الثانية قد أعلن في اليوم السابق على هذا التاريخ /.../ فقد وجدتها تموج بعشرات الآلاف من جنود الدول المتحالفة."[6]

فالراوي لم يستحضر هذا النص جزافا وإنما غرضه من استحضار هذا التناص أن يبين مدى قوة الدول المتحالفة (فرنسا، إنجلترا، الولايات المتحدة الأمريكية، الاتحاد السوفياتي) في السيطرة على دول المحور(ألمانيا، إيطاليا، اليابان) فهو من جهة يستحضر هذا التناص ليصور مدى قوة الولايات المتحدة الأمريكية والدول المتحالفة معها باعتبارهم سيواجهون العراق، ومن جهة أخرى يريد أن يبين أداة الحرب التي تستعملها الدول المتحالفة في الحروب والمتمثلة في الجنود، فيقول: " كانوا يسيرون في الطرقات على غير هدى، ينشدون بلغات مختلفة وبعضهم يرقص على نغم الأكف ويخيل لمن يراهم أنهم قد حصلوا على عفو بعد حكم قضى بإعدامهم."[7] فهؤلاء الجنود كما يوضح الراوي في ثنايا الرواية خاصة في الفصل الثاني من الرواية المعنون "بسجن العظماء" أنهم مجموعة من المساجين والمجرمين والمحكوم عليهم بالإعدام، أطلق عليهم تسمية "أبناء الديمقراطية" لإيهام الشعوب العربية بنشر الديمقراطية التي يفتقرون لها، فالراوي وظف هذا التناص للتعبير عن مدى قوة أمريكا وحلفائها وكشف أداة الحرب المستعملة .

"وياسر شعبان" باستحضاره للتاريخ واستلهامه معطياته الدلالية في نصه الروائي أنتج تمازجا وخلق تداخلا بين الحركة الزمنية، مما سمح باستنطاق الواقع المعيش.

2 ــ التناص الأدبي : (مع نصوص سردية)

هذا النوع من التناص يعني تداخل نصوص أدبية مختارة، قديمة وحديثة، شعرا أو نثرا مع نص الرواية الأصلي بحيث تكون منسجمة وموظفة ودالة قدر الإمكان على الفكرة التي يطرحها المؤلف أو الحالة التي يجسدها ويقدمها مع روايته، فالرواية لا تخلوا من التناص الأدبي، فقد وظف الكاتب عدة علاقات تناصية، وتحديدا مع **رواية (المحاكمة)"لكافكا"**.

يأتي التناص مع رواية المحاكمة في معرض حديث الراوي عن إيجاد شيء ما يسهم به في تخفيف ما يعانيه، فقد صرح بأن اللحظة التي كان يعيشها في تلك الفترة: " لحظة كابوسية لا تخلو من هزل /.../ لحظة كابوسية تذكرك برواية المحاكمة لكافكا"[8]، فنص الروائي يدفع قارئه لدراسة التناص بينه وبين نص "كافكا" من خلال تناص الأفكار المحيل على كل ما هو واقعي، وهذا التناص يحمل في طياته رياح التغيير والتبديل في المواقف والرؤى الأيديولوجية والسياسية.

ومن أهم جوانب تناص الأفكار بين الروايتين، فكرة رؤية الإنسان مقيد ومجبر على أفعاله، فقد وضعت له حدود لا يستطيع تجاوزها، "فكافكا" في المحاكمة " يريد أن يصور الإنسان غريبا معلقا لا يدري من أين جاء وإلى أين يمضي /.../ كما لا ينكر وجود القوة القاهرة المدبرة، ولكنه لا يعرف كيف يتصل بها"[9].

كما يكمن التناص بين الروايتين في أن الشخصيات في كلتا الروايتين تجد نفسها في صراع مع قوى لا تستطيع مجابهتها، وما يرمي إليه "ياسر شعبان" في تناصه مع "كافكا" في المحاكمة، إنما هو تبيان حالة الإنسان في مطلع القرن العشرين وشعوره بالعجز والضياع، وأنه مجرد نسخة قد حددت لها أفعالها، وأن هناك قوى تسيطر عليها، وفي هذا السياق يقول الراوي: "

لحظة لا تخضع فقط لمنطق الحلم، بل تتجاوزه بفعل آليات نسخ تكاد تكون لا نهائية لتجد نفسك أمام آلاف النسخ/.../ حالة تتجاوز استخدام الأقنعة فالقناع يشير إلى وجود وجه أسفله، أما النسخ فتوهم بأن الوجوه حقيقية ولأشخاص حقيقيين"[10].

كما أن مضمون رواية (المحاكمة) هو تبيان: " محنة الإنسان وحيرته أمام العدالة وإن العدالة موجودة والجميع يتكلمون عنها، ولكن الوصول إليها غير ممكن"[11].

ورواية (أبناء الديمقراطية) دخلت في علاقة تناصية مع الأفكار التي تدور حولها رواية (المحاكمة) والراوي يسعى من خلال روايته إلى محاولة تحقيق العدالة وكشف الوجه الحقيقي للشعوب الغربية تجاه نظرتها للشعوب العربية، فهذه الشعوب ترتدي أقنعة تخفي وراءها الحقيقة التي لا تريد أن يطلع عليها الآخرون، فهو بقوله هذا يرمي إلى أن أمريكا لا تريد أن تبين صورتها الحقيقية، وأنها لا تعتدي على الشعوب العربية، وإنما تحميها من أعداء الديمقراطية أو بالأحرى "الإرهاب" الذي ينشر الرعب ويخلف الدمار، وأنها تحاول أن تنشر السلام والمحبة، وتحقيق العدالة وإصلاح ما فسد منها، وهذا نقيض ما تخفي تماما، "فياسر شعبان" عبر تناصاته مع رواية (المحاكمة)، يكشف عن كيفية تمثله لها، إذ ينطلق من الواقع بهدف الإيضاح والتغيير والتبديل.

ـ **التناص مع "جان جينيه"** : يرتبط أفق التناص في (أبناء الديمقراطية) بعالمية النص أو دنيا النص التي يروج لها "إدوارد سعيد" فهو يرى: " أن كل نص أدبي مثقل بمناسبته التي تفرض عليه علاقاته النصية، أي بالوقائع التجريبية البسيطة التي انبثق عنها فالنص يعقد علاقاته في إطار

عالميته، فالنصوص توجد في أشكال دائمة التشابك مع الوسط الاجتماعي والثقافي والسياسي ومع الزمان والمكان"[12].

و(أبناء الديمقراطية) مثقلة بمناسبتها، فهي تحاول أن توقظ الضمير العربي وذلك بذكرها "للمخططات الأمريكية لإعادة استعمار المنطقة العربية تحقيقا للحلم الصهيوني "من النيل إلى الفرات" واستنزاف ما تبقى من ثروات نفطية "[13].

فكان من الطبيعي أن تدخل هذه الرواية في علاقات تناصية مع نصوص أخرى، تدور في فلكها ولها حضورها في ذاكرة الروائي، وما يجيش فيها من خزين معرفي ووجداني، وقد استشهد "ياسر شعبان" في روايته بـــ "جان جينيه" حيث يقول:" وثمة مقولة مدهشة لـــ "جان جينيه" : ـــ الفيلسوف والصعلوك ـــ بشأن التمرد والخروج على قواعد الجماعة وقوانينها..."[14]، فهو يوظف هذه المقولة، ويسعى من ورائها لإنتاج الدلالة، فتبرز لتعزيز ما يرمي إليه الكاتب، ويحاول أن يبين أن "جان جينيه" شارك في حركة التحرر العربي من خلال نصوصه الصارخة في وجه المستعمر، فقد آمن بالقضية الفلسطينية لذلك كتب حبا بالفلسطنيين ودفاعا عنهم، لذلك صرح بقوله: " إنني فرنسي غير أنني كليا، ودون حكم، أدافع عن الفلسطنيين، إنهم محقون فيما يطالبون به"[15]، فالأمر الذي جعله صعلوكا ومتمردا هو: "أنه عاش حياة صاخبة، فهو ابن غير شرعي، ونزيل دار الأيتام، التلميذ المجتهد، السجين في مقتبل العمر، الصعلوك ذائع الصيت، المتشرد، صديق المقهورين المثلي العسكري في اللفيف الأجنبي، صديق الجزائريين في ثورتهم، المتمرد على المركزية المغربية، عدو إسرائيل"[16].

فقد كان من أشهر اللصوص والهاربين من يد العدالة في تاريخ فرنسا المعاصر فحياته تحولت إلى أيقونة إلى التمرد عندما جال العالم

ليتحول إلى صوت للمضطهدين من ذلك مناصرته للفدائيين الفلسطنيين فقد تبنى قضيتهم إلى آخر يوم في حياته، فلم نجد كتابات "جان جينيه" (أسير عاشق وأربع ساعات في شاتيلا، ونظرات خاطفة على أمريكا، ومؤتمر ستوكهولم والإخوة كارامازوف ...) تطفو على رواية (أبناء الديمقراطية) بصيغة مباشرة، بل كانت هذه النصوص حاضرة في مضمونها على متن هذه الرواية فهو " إن كان لم يشهد حرب الخليج الثانية التي غزت فيها القوات العراقية للكويت، ولا احتلال القوات الأمريكية للعراق بعد أحداث 11 سبتمبر التي انعكست تبعاتها على العالم أجمع بما فيها الوطن العربي، ولم يتابع المجازر الدموية التي يرتكبها الكيان الصهيوني ولا الممارسات اللاإنسانية التي تقترفها الإمبريالية العالمية التي يتزعمها اللوبي الصهيوني بحق الشعب العربي من أجل السيطرة على موارد النفط، لكن نبؤة صاحب "عذراء الزهور" و "الخادمات" و "الأسير العاشق" و"شعائر الجنازة" بتاريخ دموي سيبقى يعصف ببلادنا العربية قاطبة مادامت آبار النفط تضخ الذهب الأسود الذي يسفح مقابل كل برميل منه دم مواطن عربي"[17].

فهذه النصوص بمثابة مرافقة لحركاته وأفعاله أكثر منها قائمة بذاته وهي: " مذكرات ومشاهدات وآراء في لحظات محددة في تاريخ معارضته، أو في الأصح مناوئته للرأي العام الغربي، هذه المناوئة وإن اتخذت شكل المعارضة والانتقاد حد التمرد، إنما تكشف عن طابع من رد الفعل الحاد الذي اتخذه الكاتب نصا وسلوكا بوصفه الطرف المهمش من معادلة المجتمع"[18].

أخيرا يمكننا القول واعتمادا على تأويلنا للتناص غير المباشر بين "ياسر" و "جينيه"، أن "ياسر" سعى من خلال هذا التناص إلى توضيح وكشف تمرد "جينيه" على قوانين الجماعة وذلك من خلال مساندة "جينيه" الغربي

للعرب، وهذا يدخل ضمن منطق رفض الهامش للمتن، أي هي صورة لانتقاد المركزية النظرية الغربية التي تجسدت في إقامة إسرائيل وحلفائها وإسنادهم على حساب العرب، كما أراد أن يبين من خلاله صورة المجتمع الغربي الظالم، وهذا ما نلمحه على متن الرواية.

3 ــ التناص الديني : يتناص النص الأصلي للرواية مع نصوص دينية مختارة، بشكل ضمني من خلال بنيات نصية صغرى مضمنة في المتن الروائي، تحيل إلى مرجعيتها الدينية، وتكون متضمنة في النص الروائي، بعد أن انتزعت من سياقها الديني لتأخذ في النص الروائي أبعادا سياسية أو أدبية أو أيديولوجية مرتبطة بالواقع التاريخي أو الاجتماعي أو التخييلي الذي تطرحه الرواية، كما أن حضور النص الديني في الخطاب الروائي يضفي عليه سمة التأثير سواء كان ذلك على مستوى البناء الفني للرواية، أو على مستوى المتلقي، ويتحدد ذلك في تعميق الفكرة التي جاءت في سياقها.

وفي رواية(أبناء الديمقراطية) كثرت نماذج التناص الديني، سواء كان ذلك مع التراث الإسلامي (القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف) أو مع التراث المسيحي.

ــ التناص مع القرآن الكريم: يتطلع النص الروائي إلى تناصاته مع النص المقدس ولكن ليس بصورة مباشرة، فالتناص هنا جاء بشكل ضمني، والغرض منه ترقية أبعاده اللغوية والفكرية، وإعطاء الخطاب الروائي قيمة فنية خاصة ذات تأثير عميق في نفس المتلقي بعد أن يمنحها رؤيته الخاصة وأيضا لتفجير طاقات دلالية خاصة، بحيث يكون الاتكاء عليه في تشكيل عمله الروائي، ومن هنا تأتي الحاجة إلى النص القرآني بوصفه نصا"اعجازيا" مشتركا بين القارئ والكاتب.

وإذا تأملنا رواية (أبناء الديمقراطية) ستظهر لنا تناصات الكاتب مع الفضاء القرآني ليس بالمساحة الكبيرة، تشيع في روايته معان قرآنية من شأنها تعميق دلالات الرواية والتأثير على القارئ بانشغالاتها الفكرية والنفسية، سنكتفي بذكر بعض النماذج للتمثيل، فمن ذلك قول الراوي: " باسم من قضى نحبه وباسم من ينتظر..."[19]، ففيه إحالة إلى قول الله تعالى وهو يصف المؤمنين بأنهم مستمرين على عهدهم وميثاقهم في الجهاد، فيقول عز وجل في محكم تنزيله: " من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا "[20]، وكان سبب ذلك كما ورد في تفسير "بن كثير" أن الله عز وجل:" لما ذكر المنافقين، أنهم نقضوا العهد الذي كانوا عاهدوا الله عليه لا يولون الأدبار وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق(وصدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه) يعني موته على الصدق والوفاء ومنهم من ينتظر الموت على مثل ذلك "[21].

وما نلاحظه أن "ياسر شعبان" في استحضاره لهذا النص، واستلهامه للنص القرآني إنما أراد أن يعبر من خلال تداخل النصوص عن الوضع الحاضر، فكما عرفنا في التفسير السابق في "من قضى نحبه ومنهم من ينتظر" أي مات على الصدق و الوفاء ومنهم من ينتظر الموت على مثل ذلك، فهذا النص لدى "ياسر شعبان" يخرج من دلالة هذا المعنى الذي عرفناه ويكون (من قضى نحبه) ذلك الذي جحد مبادئ الديمقراطية (ومن ينتظر) الذي سيموت لأنه جاحد لهذه المبادئ، ولعل ما يؤكد صحة قولنا هو الكلام السابق لهذا النص، قوله:" باسم الذين كتب عليهم الموت لأنهم جحدوا مبادئ الديمقراطية "[22] ومناسبتها هي التحذير من "أبناء الديمقراطية" باعتبارهم مجموعة من المساجين والمجرمين الذين يكونون جيوش خاصة بالدول

الغربية الذين جاؤوا إلى الشعوب العربية لنشر مبادئ الديمقراطية، هذه المبادئ الزائفة والتي باسمها تزهق أرواح رافضيها وتحتل الشعوب وأراضيها، فيكون هذا لونا من ألوان الإيهام بالاستشهاد القرآني، بينما الحقيقة تقول عكس ذلك، وقد جاء استدعاء الآية مناسبا جدا للسياق ومتسقا معه.

ومن ذلك أيضا قوله: "باسم يوم الوعيد المنتظر الذي تخشع فيه الأرض رهبة وتفتح السماء أبوابها لتستقبل الملايين من أرواح البشر..."[23]، فهذا القول فيه تناص غير مباشر مع أكثر من آية في القرآن تتحدث عن يوم الحساب والجزاء للعباد، مثل قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾[24]، فحسب ما جاء في تفسير هذه الآية أنه "اليوم الذي توعد الله فيه المجرمين بالعقاب وسوء الجزاء"[25]، وقوله تعالى: " وفتحت السماء فكانت أبوابا"[26]، وقيل معنى ذلك "وفتحت السماء فكانت قطعا كقطع الخشب المشققة لأبواب الدور والمساكن وقالوا: ومعنى الكلام وفتحت السماء فكانت قطعا كالأبواب "[27]، فقد جاءت النصوص القرآنية منسجمة مع سياق الحدث الروائي، كأنه جزء من بنيته، إلا أن "ياسر شعبان" يقصد (بيوم الوعيد) ذلك اليوم الذي تغزو فيه قوات الاحتلال الأمريكي وتسيطر على مقدرات الشعوب بحجة الديمقراطية، هذه الديمقراطية الوهمية الزائفة، والتي لم تجلب إلا الدمار وحصاد الأرواح، كما يقول الراوي: "ذلك هو يوم حصاد الأرواح على يد أبنـــــاء الديمقراطية "[28].

ويبدو أن النص السابق (باسم يوم الوعيد..) انزاح نسبيا عن صيغته الأصلية في القرآن الكريم، مع بقاء بنيته العميقة مشعة، فيوم الوعيد كما ورد في القرآن هو يوم الحساب الذي وعده الله للكفار أن يعذبهم فيه، ويوم الوعيد كما جاء في الرواية هو يوم الحساب الذي سيكون على يد أبناء

الديمقراطية للشعوب الرافضة لمبادئ الديمقراطية، لذلك ستفتح السماء أبوابها لتستقبل الملايين من أرواح البشر الرافضين لها.

فهذا الحديث يقودنا إلى اعتبار علاقة المحاكاة التي تحكم هذا التعالق النصي الذي تم على صعيد استرجاع النص القرآني الغائب ودلالته في النص الروائي لتعميق التماثل والتشابه المضموني بين الحالتين، حالة الناس يوم الحساب وحالة الشعوب الرافضة للديمقراطية يوم الاحتلال.

ويأتي نموذج آخر للتناص الضمني من خلال علاقة تناصية يستحضر فيها الراوي آية من القرآن الكريم، في سياق حديثه عن فكرة غياب العدل والمساواة بين الناس يقول: "لا فرق بين الحاكم والمحكوم والقاضي والمتهم فهذا وذلك بشر..."[29]، فهذا القول فيه إحالة إلى قول الله عز وجل: "وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل"[30]، فكما جاء في التفسير الشامل للقرآن الكريم بخصوص هذه الآية أن الله عز وجل: "يخاطب بذلك على وجه الخصوص الحكام والأمراء والولاة، وقيل إن الخطاب موجه في معناه لجميع الناس فهم مدعوون للحكم بالفعل إذا ما حكموا"[31]، لذلك نجد الراوي يستحضر هذا النص ليبين فكرة غياب العدل والمساواة والظلم السائد بين الناس، وكشف وجه الباطل الذي تسام العباد من خلاله ألوان الشقاء والبلاء.

وتحضر علاقة تناصية أخرى يستحضر فيها الراوي نصا قرآنيا، وذلك من خلال وصف الأحوال التي بدا عليها المساجين بعد رفض تلبية طلباتهم من قبل وزارة الخارجية، ففي هذا الصدد يقول: "وبدا المساجين كأنهم سكارى وما هم بسكارى ولكن الدهشة أذهلت عقولهم"[32]، وهذا القول يحيلنا إلى قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[33]، فقد جاء في تفسير هذه الآية (وترى الناس...): " أي ترى

الناس يا محمد من عظيم ما نزل بهم من الكرب سكارى وذلك من فرط ماغشيهم من الذعر والفزع وهم ليسوا سكارى من شرب الخمر ولكن عذاب الله شديد"[34]، و"ياسر شعبان" إنما يوظف هذا التناص ليبين ذعر المساجين وحيرتهم من فظاعة الحيل المستخدمة من قبل وزارة الخارجية، بل ومن فظاعة هذا الحكم والظلم الجائر وشدته وهول ما ينزل بهم من القوارع والبلايا ولذلك جاء استدعاء الآية مناسبا جدا للسياق ومتسقا معه.

مما سبق نلحظ أن آليات التناص مع النصوص القرآنية عند "ياسر شعبان" قد ارتكزت على التناص غير المباشر مع المفردات والتراكيب القرآنية والتي حاورها الراوي ليستحضر دلالتها في نصه، لذلك استعار بعض هذه المعاني لتكون معلما له يهتدي به في الرواية.

ــ **التناص مع الحديث النبوي الشريف:** يعد الحديث النبوي الشريف المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي، فكما عكف الكتاب على النصوص القرآنية ينهلون منها مادتهم، فإن الحديث كان أحد المناهل والمصادر التي رفد منها الرواة والشعراء.

وفي رواية (أبناء الديمقراطية) لم يرد تناص مباشر مع الحديث النبوي الشريف، ونقصد بذلك أن يرد قبله ما يدل على أن النص التالي هو حديث شريف، فقد استحضره في نصه الروائي وأعاد كتابته وفق تجربته الشعورية، ووفق منطق نصه بإشراق عبارته وبلاغته، واستطاع أن يستوعب مضامين الحديث الشريف ودلالاته وأن يذيبها في نصه.

وهذا التناص غير المباشر أمثلته قليلة في الرواية، فمن ذلك قول الراوي: "لا فرق بين الحاكم والمحكوم والقاضي والمتهم فهذا وذاك بشر/.../ فالناس جميعا يخرجون من بطون أمهاتهم وكلهم يبغون المجد ويضل منهم

من أعد العدة لقطع الطريق"[35]، فهذا القول فيه إحالة إلى قول رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : "لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي ولا أبيض على أسود، ولا أسود على أبيض إلا بالتقوى"[36]، فالمقصود من الحديث أن الناس جميعا سواسية كأسنان المشط، لأنهم من أب واحد وأم واحدة، وإنما يفضل الفاضل منهم بتقوى الله وحده، فكلنا أبناء تسعة أشهر وكلنا إخوة وأخوات، والكاتب استحضر هذا الحديث ليبين حقيقة العدل والمساواة المفتقدة بين الناس، وأن هذا الحاكم أو القاضي بحكم منصبه يقترف للذنوب ويفعل أي شيء لأنه لا يوجد من يردعه ولا يساوي نفسه بغيره لذلك قال:" وقد يكون القاضي مقترفا لذنب أعظم من جرم هذا الذي يكون تحت رحمة قضائه، وقد يكون الحاكم على خطأ لا يغفر له ويحق الموت على من اقترفه من رعاياه"[37].

وما نتبينه من هذا القول إنما هو عدم تطبيق مبدأ المساواة والعدل في الحكم، فالتناص جاء متناسبا مع المعنى المراد من الحديث.

وفي نفس السياق أي عد تطبيق العدالة والمساواة بين الناس يقول في هذا الصدد:" إذا ارتكب رجل قوي جريمة ضد آخر ضعيف، لا يحاكم الرجل أقوى على جريمته بل يحاكم ظله..."[38]، ويقصد هنا بالرجل القوي ذلك الرجل الذي له مكانة مرموقة وصاحب نفوذ وسلطة فهو لا يعاقب على أفعاله وتصرفاته، بينما ذلك الرجل البسيط الذي ينتمي إلى الطبقة الكادحة تسلط عليه أبشع العقوبات وهذه المقولة السابقة تحيلنا إلى الحديث النبوي الشريف " فعن عائشة رضي الله عنها، دخل علي رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم وهو يقول: "يا عائشة قومك أسرع أمتي بي لحاقا"، قالت فلما جلس قلت: "يا رسول الله جعلني الله فدائك لقد دخلت وأنت تقول كلاما ذعرني؟" فقال: وما هو؟"، قالت: "تزعم أن قومي أسرع أمتك بك لحاقا" قال:

"نعم"، قالت: "وعم ذاك؟، قال: "تستلحيهم المنايا فتنفس عليهم أمتهم، قالت: فقلت:" فكيف الناس بعد ذلك أو عند ذلك؟ قال: "دبى" يأكل شداده ضعافه حتى تقوم عليهم الساعة"[39].

فالروائي باستحضاره لهذا النص أو التلميح له، إنما يريد أن يبين بنصه هذه السياسة المطبقة في عصرنا الراهن، أي سياسة أكل القوي للضعيف، وطغيان روح الكراهية وحب النفس وغياب العدالة والمساواة، سواء كان ذلك من قبل الشعوب الغربية باعتبارها هي الشعوب القوية، والتي تمارس هذه السياسة على الشعوب العربية، أو على الشعوب العربية نفسها (أي بين حكامها ومحكوميها) باعتبارها الأولى (القوي) والثانية (الضعيف). وعلى العموم فإن "ياسر شعبان" في تلميحه أو في تناصه الضمني مع الحديث النبوي الشريف، ومن خلال تلاعبه بتوظيف المعاني والمفردات استطاع أن ينفلت من حيث الدلالة من النص الغائب ليرسخ النص الحاضر.

ـ تناص مع الديانة المسيحية : تدخل رواية (أبناء الديمقراطية) في عدة علاقات تناصية مع الديانة المسيحية فقد وظف "ياسر شعبان" التراث المسيحي في روايته وذلك من خلال الأدوار والمشاهد التي تؤديها شخصياته المختلفة خصوصا في الفصل الثاني من الرواية (سجن العظماء)، فالديانة المسيحية في (أبناء الديمقراطية) وظفت عبر عدة علاقات تناصية، توحي بوجود تماثل قوي بين النص الديني والنص الروائي، فتأتي بعض النماذج لهاته العلاقات التناصية عبر بنى نصية صغرى تحيل إلى النص الديني (الديانة المسيحية)، وذلك في سياق سرد الراوي عن الدعاية للاستعمار باسم الدين. وكان ذلك بعد المفاوضات التي أجراها كل من الوفد الذي يمثل المساجين، والوفد الذي يمثل الوزارة الخارجية البريطانية، ورفض مطالب

المساجين المتمثلة في المناصب المرموقة، وتعيينهم آباء مبشرين، وهم لا يعرفون عن الدين شيئا من ذلك ما جاء في الرواية " كيف يحدث هذا وسواد المساجين الأعظم لم يطأ أعتاب الكنائس من تاريخ مولده عدا اليوم، الذي حمل فيه رضيعا كي يعمد، كما أن معظمهم لا يعرف القراءة والكتابة "[40]، فعبر هذه البنية النصية الصغرى يقيم النص الروائي علاقة تناصية مع نص العهد الجديد تدفع القارئ باستحضار فكرة التعميد " التي هي شعيرة من شعائر النصارى ويقصدون بها غمس الجسم أو جزء منه في الماء أو رشه، وحكوا أن يحي بن زكرياء عليهما السلام قام بتعميد المسيح عيسى عليه السلام"[41].

فقد استحضر النص الروائي مجموعة من النصوص التي تجعله في تناص مع الديانة المسيحية، من ذلك (فكرة التعميد، واللعب بالأدوار بين القسيس والمعترف، والآباء المبشرين ...) كل هذا يبرز التعالق النصي مع التراث المسيحي.

ومناسبة هذه النصوص إنما هي التخطيط للاستعمار باسم الدين، فهؤلاء الآباء المبشرين ليسوا مبشرين تابعين للكنيسة وإنما مبشرين سياسيين، فقد جاء على لسان أحد شخصيات الرواية "مستر سميث" الذي يعد رئيس الوفد التابع للوزارة الخارجية البريطانية بأن هؤلاء المساجين" سيظلون آبائا مبشرين تابعين لوزارة الخارجية بوصفهم قسسا مدنيين/.../ ومن ثم ستكون رسالتهم في التبشير سياسية، أي دعاية للاستعمار باسم الدين".[42]

ثم تأتي مشاهد أخرى لها علاقة تناصية مع العهد الجديد عبر المشاهد التي أدى أدوارها المساجين متقمصين شخصية كل من القسيس والمعترف "فبعضهم يلد القس في إلقاء الموعظة ومنح البركة"[43]، كما

يستحضر الراوي كيفية التعبير في الصلاة التي كان يؤديها الصاحبين، فيقول: "وأحاط نفر منهم بـــ"جون" طالبين منه أن يعلمهم الصلاة التي يحفظها ولما لم يستطع التملص منهم لقناها لهم وكانت قصيرة يرددها على روح الأموات وفي كل مناسبة لم يكن يعرف صلاة سواها وهي (اللهم اغفر لنا خطايانا)..."[44]، وفي ذلك إحالة لكيفية الصلاة عند المسيحيين، فكما جاء في(إنجيل لوقا) أن الصلاة تكون كالآتي: "أبانا الذي في السماوات ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء، كذلك على الأرض، خبزنا كفانا أعطنا كل يوم، وأغفر لنا خطايانا لأننا نحن نغفر لكل من يذنب إلينا ولا تدخلنا في تجربة لكن نجنا من الشرير "[45]،فهذا الحديث يقودنا إلى التعالق النصي الذي تم على صعيد استرجاع النص المسيحي الغائب الخاص بكيفية التعبير في الصلاة، ودلالته في النص الروائي لتعميق التماثل والتشابه المضموني بين الحالتين.

ويأتي نموذج آخر في مشهد آخر، حيث يقف سجين يمثل دور المبشر وأمامه سجين آخر يمثل دور الوثني الذي يستعطف المبشر كي يهديه للدين،" فيقول له المبشر وقد أمسك بأذنه: عليك أن تتبع رسالة وزارة الخارجية البريطانية فهي وكيلة عن آلهة السماوات في الأرض حتى ترسل اسمك إلى السماء كي يحجز لك مقعدا في الجنة، وإذا لم تنفذ تعاليم وزارة الخارجية البريطانية فترسل لك عددا من الشياطين يحيلون حياتك جحيما حتى تهلك على أيديهم وتخلد بعدها في النار"[46].

صحيح هذه المشاهد تدفع القارئ باتجاه استحضار الديانة المسيحية من خلال دور المبشر وهدي المعترف... ولكن خلفها(المشاهد) معاني ضمنية تستحق التأويل، فثمة علاقة بين التبشير والاستعمار فهما وجهان لعملة واحدة فالمبشرون هم الواجهة الدينية للمستعمر، والاستعمار هو الحقيقة

الاقتصادية والسياسية للمبشرين، فهذا النص يعيد صياغة النتاج المسيحي القولي من جديد وجعله ينبني على فكرة إتباع المبشرين ووزارة الخارجية في هذه الحياة، لأن وزارة الخارجية وكيلة لآلهة السماوات في الأرض والآلهة هي من تقرر حياة الناس وتحجز المقاعد في الجنة، ويقصد الراوي بالآلهة هنا تلك الشعوب الغربية، أما الوثني يقصد به ذلك السجين أو أداة المستعمر التي ينبغي عليها إتباع هذا المستعمر وإلا يكون مصيره الهلاك ويخلد في الشقاء .

"فياسر شعبان" بتوظيفه بعض الرموز المقدسة في الديانة المسيحية إنما أراد أن يوضح الوسيلة التي تتخذها الشعوب الغربية، في خداع وإيهام الشعوب الأخرى، وذلك من خلال خلط السياسة بالدين فهو يريد أن يوضح في نصه أن المبشرين لم يستعملوا لمصلحة دينية وإنما لخدمة الاستعمار والعبودية .

وهكذا يلاحظ أن النص الروائي يدفع القارئ عبر علاقاته التناصية المتنوعة والمتعددة باتجاه إعادة تشكيله وصياغته من جديد ، وذلك بالبحث عما هو خارج النص من معرفة وربطها، مع ما هو داخله وفتحه آفاقا تأويلية واسعة .

وهكذا تبدوا العلاقات التناصية مع النص الديني سواء مع القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف أو الديانة المسيحية، كما رأينا مثلت المرجعية الثقافية والمخزون الثري الذي رجع إليه الراوي، فالموضوعات الدينية كما نعلم تغني الفكرة لما تمتاز به من الثراء في مدلولاتها الرامزة، فقد منح النص الروائي أكثر خصوبة وثراء وإضاءة من خلال منح ما تحمله من الآيات القرآنية، والأحاديث الشريفة ومن طاقات إيحائية وإشارات تخدم

غرض الروائي وتكشف عن محور رؤيته الأساسية وتجعل القارئ متفاعل مع النص.

وبناء على ما سبق يمكن القول بأن العلاقات التناصية التي وظفها الكاتب على مستوى روايته، سواء كانت تاريخية أم أدبية أم دينية كان مفادها الكشف عن الوجه الحقيقي للشعوب الغربية تجاه نظرتها للشعوب العربية، وتوضيح فكرة العدالة والمساواة المفقودة لدى هذه الشعوب، كما كان من أهدافه أيضا إيقاظ الضمير العربي من غفوته.

- الهوامش:

1- ياسر شعبان: أبناء الديمقراطية، دار الهلال، القاهرة، مصر، ط1، 2006، ص:.06

2- المصدر نفسه، ص : 07 .

3- المصدر نفسه، ص، ص: .28،27

4- المنتدى العربي للدفاع: حرب العراق ــ أسبابها ونتائجها ــ ، 14 سبتمبر 2009، بتوقيت 10:11 عن موقع :www.defense-arab.com

5- ياسر شعبان : أبناء الديمقراطية ، ص:.07

6- المصدر نفسه، ص : 14 .

7- المصدر نفسه، ص : 14 .

8- المصدر نفسه، ص : 53 .

9- عبدة عبود: الرواية الألمانية الحديثة ــ دراسة استقبالية مقارنة ــ د.ط ، منشورات وزارة الثقافة، دمشق سوريا، 1993، ص، ص: 129، .130

10- ياسر شعبان: أبناء الديمقراطية، ص، ص:.54،53

11- عبدة عبود: الرواية الألمانية الحديثة ــ دراسة استقبالية مقارنةــ ص:.141

12- ادوارد سعيد: العالم والنص والناقد، تر: عبد الكريم محفوظ، د.ط، منشورات اتحاد الكتاب العرب 2000، ص : 41 .

13- ياسر شعبان: أبناء الديمقراطية، ص : 71 .

14- المصدر نفسه، ص :.46

15- جان جينيه: أربع ساعات في شاتيلا، تر : محمد برادة ، مجلة الكرمل ، بيسان للصحافة والنشر ، قبرص ، ع7 ، 1983 ، ص : 160 .

16- حميد عبد القادر :مع جان جينيه صعلوكا ومثقفا ،31جانفي 2013، بتوقيت : 22:23 ،عن موقع : www.elkhabar.com.

17- أنس زرزر : جان جينيه المتمرد الذي اختصر تاريخنا العربي بجملة واحدة 30 أوت 2009 بتوقيت : 22:13 ، عن موقع: www.teshhreen.news.sy

18- سهام جبار : جان جينيه ــ شعرية التمرد والتوثيق السيري ، 30يناير 2013 ،بتوقيت : 22:24 ، عن موقع :www.fobyaa.com.

19- ياسر شعبان : أبناء الديمقراطية ، ص : 05.

20- سورة الأحزاب : الآية 23 .

21- ابن كثير الدمشقي: تفسير القرآن العظيم، ج3، ط1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2002، ص، ص : 1473 ، 1474 .

22- ياسر شعبان: أبناء الديمقراطية ، ص:05 .

23- المصدر نفسه، ص: 05 .

24- سورة ق: الآية 20 .

25- أمير عبد العزيز: التفسير الشامل للقرآن الكريم ، مج6 ، ط1 ، دار السلام، القاهرة، مصر 2000، ص : 3191 .

26- سورة النبأ : الآية 19 .

27- أبي جعفر محمد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آية القرآن، (تفسير الطبري) تع: محمود شاكر الدرستاني، تصحيح: علي عاشور ج29، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان،2001، ص: 13.

28- ياسر شعبان: أبناء الديمقراطية ، ص : 05 .

29- المصدر نفسه ، ص : 51 .

30- سورة النساء : الآية 58 .

31- أمير عبد العزيز : التفسير الشامل للقرآن الكريم ، مج2 ، ص : 731 .

32- ياسر شعبان : أبناء الديمقراطية ، ص : 87 .

33- سورة الحج : الآية 02 .

34- أمير عبد العزيز : التفسير الشامل للقرآن الكريم ، مج4 ، ص : 2239.
35- ياسر شعبان : أبناء الديمقراطية ، ص : 51 .
36- الطحطاوي: العقيدة الطحطاوية ، شر وتع : محمد ناصر الدين الألباني، ط2، المكتب الإسلامي، بيروت ، لبنان ، 1414هـ ، ص : 406.
37- ياسر شعبان : أبناء الديمقراطية، ص: 51.
38- المصدر نفسه، ص:54 .
39- محمد ناصر الدين الألباني : سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها ، مج4 ، د.ط ، مكتبة المعارف ، الرياض ، السعودية ، 2000 ، ص : 596 .
40- ياسر شعبان : أبناء الديمقراطية ، ص ، ص :79 ، 80.
41- منتديات حراس العقيدة : كيف يتم تعميد النصارى ، 11 نوفمبر 2014، بتوقيت : 21:32، عن موقع : www.hurras.org
42- ياسر شعبان : أبناء الديمقراطية ، ص :.80
43- المصدر نفسه، ص:.83
44- المصدر نفسه، ص:.83
45- محمد أحمد الخطيب: مقارنة الأديان، ط1، دار المسيرة، عمان، الأردن، 2008 ، ص: 352.
46- ياسر شعبان : أبناء الديمقراطية ، ص، ص: 83،84.